

تفسير البحر المحيط

@ 436 @ والإشارة إلى العذاب الذي هم فيه ، أو إلى مقتهم أنفسهم ، أو إلى المنع من الخروج والجزر والإهانة ، احتمالات . مقوله . وقيل : الخطاب المحاضرين رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، والضمير في فإنه ضمير الشأن . { إِذَا دُعِيَ اللَّهَهُ وَحْدَهُ } : أي إذا أفرد بالإلهية ونفيت عن سواه ، { كَفَرَتْكُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ } : أي ذكرت اللات والعزى وأمثالهما من الأصنام ، صدقتم بألوهيتها وسكنت نفوسكم إليها . { فَالْحُكْمُ } بعذابكم ، { لِلَّهِ } ، لا لتلك الأصنام التي أشركتموها مع الله ، { الْعَلَى } عن الشرك ، { الْكَابِيرُ } : العظيم الكبرياء . وقال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات ، يكلمهم الله في الأربعة ، فإذا كانت الخامسة سكتوا . { قَالُوا رَبَّنَا أَمَنَّكَ إِثْنَتَيْنِ } الآية ، وفي إبراهيم : { رَبَّنَا أَخْرِنا } الآية ، وفي السجدة : { رَبَّنَا أَبْصِرْنا } الآية ، وفي فاطر : { رَبَّنَا أَخْرِجْنا } الآية ، وفي المؤمنون : { رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا } الآية ، فراجعهم اخسؤا فيها ولا تكلمون ، قال : فكان آخر كلامهم ذلك .

ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين ، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ، ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل الأحجار المنحوتة والخشب المعبودة شركاء ، فقال : { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ } ، أيها الناس ، ويشمل آيات قدرته من الريح السحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها من الآثار العلوية ، وآيات كتابه المشتمل على الأولين والآخرين ، وآيات الإعجاز على أيدي رسله . وهذه الآيات راجعة إلى نور العقل الداعي إلى توحيد الله . ثم قال : { وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً } ، وهو المطر الذي هو سبب قوام بنية البدن ، فتلك الآيات للأديان كهذا الرزق للأبدان . { وَمَا يَتَذَكَّرُ } : أي يتعظ ويعتبر ، وجعله تذكراً لأنه مركز في العقول دلائل التوحيد ، ثم قد يعرض الاشتغال بعبادة غير الله فيمنع من تجلي نور العقل ، فإذا تاب إلى الله تذكر .

{ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ الدِّينَ وَلَوْ * وَلاَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * } رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّلَّذِينَ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ

سَرَّيْعُ الْحَسَابِ * وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى
الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِيْلَطَّ السَّمِينُ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ *
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوسَةً
وَعَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنَ
اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَوَلَّاهُمْ تَرْبِيَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْأَيْدِي
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّ زَنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ . .

الأمر بقوله : { فَادْعُوا اللَّهَ } للمنيبين المؤمنين أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم) : أي اعبدوه ، { مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } من الشرك على كل حال ، حتى في حال
غيظ أعدائكم المتمالئين عليكم وعلى استئصالكم . ورفيع : خبر مبتدأ محذوف . وقال
الزمخشري : ثلاثة أخبار مترتبة على قوله : { السَّذَى يُرِيكُمْ } ، أو أخبار مبتدأ
محذوف ، وهي مختلفة تعريفًا وتنكيرًا . انتهى . أما ترتيبها على قوله : { هُوَ السَّذَى
يُرِيكُمْ } ، فبعيد كطول الفصل ، وأما كونها أخبارًا مبتدأ محذوف ، فمبني على جواز
تعدد الأخبار ، إذا لم تكن في معنى خبر واحد ، والمنع اختيار أصحابنا . وقرء : رفيع
بالنصب على المدح ، واحتمل أن يكون رفيع للمبالغة على فعيل من رافع ، فيكون الدرجات
مفعول ، أي رافع درجات المؤمنين ومنازلهم في الجنة . وبه فسر ابن سلام ، أو عبر
بالدرجات عن السموات ، أرفعها سماء ، والعرش فوقهن . وبه فسر ابن جبير ، واحتمل أن
يكون رفيع فعيلًا من رفع الشيء علا فهو رفيع ، فيكون من باب الصفة المشبهة ، والدرجات :
المصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش ، أضيفت إليه دلالة على عزه وسلطانه ، أي درجات
ملائكته ، كما وصفه بقوله : { ذِي الْمَعَارِجِ } ، أو يكون ذلك عبارة عن رفعه شأنه
وعلو سلطانه . كما أن قوله : { ذُو الْعَرْشِ } عبارة عن ملكه ، وبنحوه فسر ابن زيد
قال : عظيم الصفات . و { الرَُّّوحُ } : النبوة ، قاله قتادة والسدي ، كما قال : {
رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا } ؛ وعن قتادة أيضًا : الوحي . وقال ابن عباس : القرآن ،